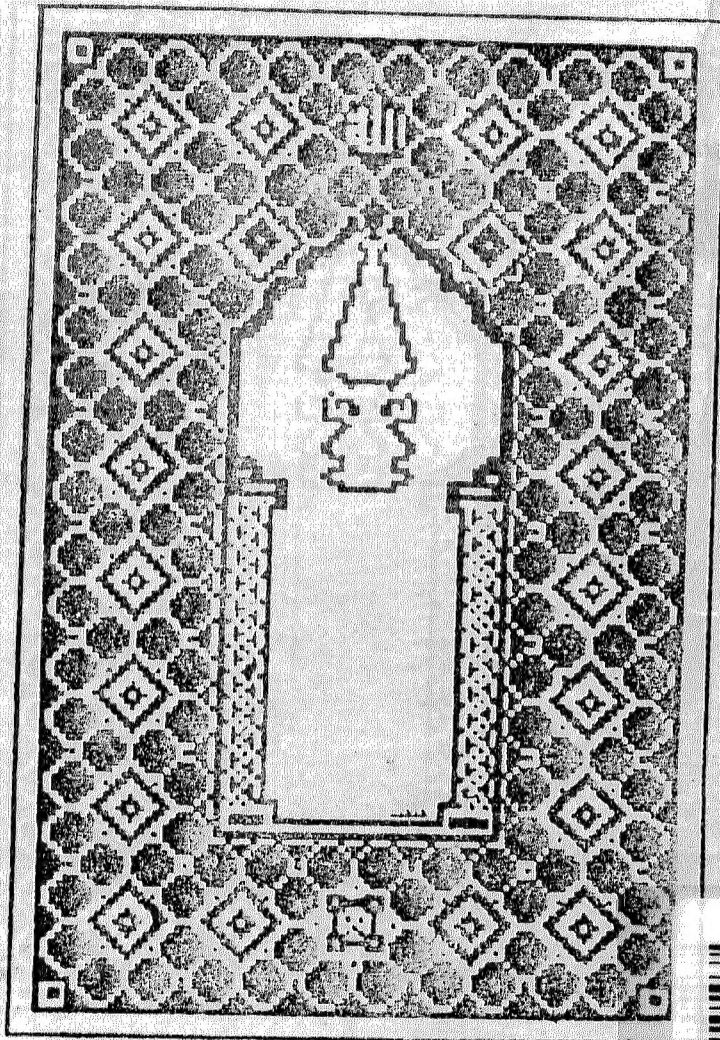
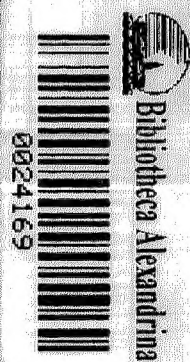


عَظَمَاتُ السُّوُلَى



دكتور عز الدين فرج
أستاذ جامعة القاهرة



عَظَمَةُ السُّبُوكِ

أدبه وشخصيته وإنسانيته
محطم الأصنام والأوهام — منقذ الأرقاء — محرر المرأة
ومنقذ الإنسانية

تأليف

هكتور عز الدين فراج
أستاذ بجامعة القاهرة

طبعة الجيد

٦٧ مطبع القرطيس ميد انستيتي طرف - مطبع

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٥٦٠ لسنة ١٩٧٤

نبي الإسلام أدبه وشخصيته وإنسانيته

كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للإنسان الفاضل ، أدبه
ربه فأحسن تأديبه ، ليكون خيراً قدوة للناس ، وليكون نوراً
يَهْدِيهِمْ إلى سواء السبيل^(١) ، وقد مدحه الله بقوله تعالى : « وإِنَّكَ
لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » .

لقد اختاره الله ليُحوِّل الدعوة إلى الإسلام ، اختاره ليدعو
الناس إلى عبادة الله مُخلصين له الدين حنفاءً وليَكُنَّ يُقيموا الصلاة
ويؤتوا الزكاة ، وإلى عادات طيبة غير ما كانوا يعتادون ، وإلى خلقٍ
كريمٍ غير ما كانوا يَأْلِفُونَ^(٢) .

وطبيعي أن يختار الله نبياً ممتازاً بالعزم الشديد ، والخلق الرشيد ،
والعقل السديد .

كان أرحم الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس
للناس .

(١) سواء السبيل = الطريق المستقيم المفضل الذي لا عوج فيه .

(٢) يَأْلِفُونَ : يعتادون .

كان أكثرهم كرمًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأوسعهم صدرًا ،
وأحسنهم عشرة .

كان لا يحتقر مسكينًا لفقره ، ولا يهاب ملكًا لملكه .
كان أبعد الناس غضبًا ، وأقربهم إلى العفو والتسامح ، ما دام
في ذلك رضا الله .

كان أعدل الناس ، وأعف الناس ، وكان أكثرهم تواضعًا ،
وعطفًا على البائسين والمخزومين .

كان يكرم أهل العلم والفضل ، وكان يصل ذوي رحمه ، من
غير أن يفضلهم على من هو أفضل منهم .

وظل النبي صلى الله عليه وسلم متواضعًا طوال حياته ، لم تغيّرهُ
الأيام ، كان متواضعًا في ضَعْفِهِ وانتِصَارِهِ ، وكان متواضعًا عندما
كان وحيدًا ، وحينما أصبح سيّد العرب بالحق والعدل ، وعندما تجمّع
حوْلَه الأنصارُ والأتباعُ الأقوياء .

فَمنَما هُزِمَت أمانُهُ جُيُوشُ قُرَيْشٍ التي حارَبَتْهُ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ
عامًا ، ودَخَلَ مَكَّةَ فاتِحًا . سَأَلَهُمْ مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فاعِلٌ بِكُمْ ؟ قالوا :
خيرًا ، أخ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ ، فردَّ عليهم بِعَفْوٍ شاملٍ وكرمٍ
نادرٍ وقال :

اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ :

وَمَا هُوَ ذَا فِي مَجْلِسِهِ ، وَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ يَرْتَعِدُ خَوْفًا ،
فَيَقُولُ لَهُ الرَّسُولُ :

هُوَ نَ عَلَيْكَ يَا أَخِي ، فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ
تَأْكُلُ الْقَدِيدَ^(١) .

وظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ يَسْتَمِعُ إِلَى الْعَبْدِ وَالْأَرْمَلَةِ وَالْعَجُوزِ وَالْمُسْكِينِ ،
وَيَقِفُ فِي الطَّرِيقِ لِكُلِّ مَنْ يُصَافِحُهُ ، يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ وَإِلَى مُشْكِلَاتِهِ ،
وَكَأَنَّهُ الْأَبُ الرَّخِيمُ ، وَالْأَخُ الْحَبِيبُ ، نَسِيَ كُلَّ مَا فَعَلَهُ أَهْلُ
مَكَّةَ مِنْ اضْطِهَادٍ وَتَعْدِيبٍ لَهُ وَلِأَتْبَاعِهِ .

* * *

وَكَانَ زَاهِدًا فِي مَسْكَنِهِ وَمَا كُلِّهِ وَمَشْرِبِهِ وَمَلْبَسِهِ وَسَائِرِ أُمُورِهِ
وَأَحْوَالِهِ ، فَكَانَ طَعَامُهُ عَادَةً الْخُبْزَ وَالْمَاءَ ، وَكَثِيرًا مَا تَتَابَعَتِ الشُّهُورُ
وَلَمْ تُوقَدْ بِدَارِهِ نَارٌ ، فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَكْرُمَةٌ وَمَنْفَعَةٌ ؟ فَنَجِدُ مُحَمَّدًا
مِنْ رَجُلٍ مُتَقَشِّفٍ ، خَشِنِ الْمَلْبَسِ وَالْمَأْكَلِ ، مُجْتَهِدٍ فِي اللَّهِ ، دَائِبٍ
فِي نَشْرِ دِينِ اللَّهِ ، غَيْرِ طَامِعٍ إِلَى مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ رُتْبَةٍ أَوْ دَوْلَةٍ
أَوْ سُلْطَانٍ .

(١) القديد : اللحم المقدد

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالاً؛ ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقتيه، وهم ملتفون حوله، يُقاتلون بين يديه ويجهدون في الله حق جهاده.

لقد كان في قلوب هؤلاء العرب جفاء وقسوة، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم، لهذا كان من يقدر على ترويضهم وإخضاعهم بطلا عظيماً.

ولولا ما وجدوا فيه من النبيل والفضل، لما خضعوا لإرادته، ولما اتقأوا لقيادته.

كان إذا غاب الرجل من أصحابه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان مريضاً زاره.

وكان إذا ودع رجلاً أخذ بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده. وكان لا يرُدُّ أحداً سألَه، بل يُعطيه إن كان عنده وإلا وعده.

وذات مرة جاءت إليه امرأة من العرب، ومعها بُردةٌ
وقالت:

يا رسول الله! أكسوك هذه البُرْدَةُ فأخذها النبي صلى الله عليه

وَسَلَّمَ فَلَبِسَهَا ، فَرَأَاهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ، فَقَالَ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الْبُرْدَةَ !
فَأَعْطَانِي إِيَّاهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ : نَعَمْ ، وَأَعْطَاهُ الرَّسُولُ الْبُرْدَةَ ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِي حَاجَةٍ
شَدِيدَةٍ إِلَيْهَا . وَلَمَّا قَامَ الْمَصْطَقِيُّ لَامَ أَصْحَابَهُ هَذَا السَّائِلَ ، وَقَالُوا
لَهُ : إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا ، وَأَنَّهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ
شَيْءٍ لَا يَمْنَعُهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَعْطَتْهُ امْرَأَةٌ ثَوْبًا كَانَ فِي شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَبَعْدَ
قَلِيلٍ طَلَبَ إِلَيْهِ أَحَدُ النَّاسِ شَيْئًا يَصْلُحُ لِأَنَّهُ يَكُونُ كَفَنًا
لِمَيِّتٍ ، فَأَعْطَاهُ ذَلِكَ الثَّوْبَ .

وَكَانَ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ ، وَهُوَ الْقَائِلُ : « وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيصْمُتْ » : وَكَانَ لَا يَتَدَخَّلُ
بِالسَّكَّامِ فِيمَا لَا يُهِمُّهُ . وَهُوَ الْقَائِلُ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ ،
تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » .

وَكَانَ لَا يَتَبَسَّسُ فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ، وَلَا يَتْرُكُهُ إِلَّا إِذَا أَقْنَعَهُ ، وَأَرْضَى
نَفْسَهُ . وَكَانَ يُخَاطِبُ كُلَّ شَخْصٍ عَلَى قَدْرِ فَهْمِهِ وَخَبْرَتِهِ .
وَكَانَ يَسُرُّ نَفْسَ مُحَمَّدٍ ، وَيُبَشِّرُهُ دَائِمًا بِالْخَيْرِ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ : « بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا » .

وَكَانَ حُلُوَ الْحَدِيثِ ، لَا يُؤْذِي أَحَدًا بِكَلِمَةٍ جَارِحَةٍ ، حَتَّى وَلَوْ
كَانَ مِنْ أَعْدَائِهِ . وَقَدْ دَعَانَا إِلَى أَنْ نَسْكُلَ النَّاسَ بِكَلَامٍ طَيِّبٍ ،
فَقَالَ : « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » .

كَانَ إِذَا تَسَكَّلَ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ الْجَمِيعُ فِي صَمْتٍ وَهُدُوءٍ ، وَإِذَا
سَكَتَ تَسَكَّلُوا ، وَكَانَ أَحْيَانًا يَمَزَحُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا .

كَانَ يَقِيلُ عَلَى مُحَدِّثِهِ ، وَيُصْنِفِي إِلَيْهِ بَوَاجِهَ بَاشٍ ، وَنَفْسٍ مُتَفَتِّحَةٍ
وَهُوَ الْقَائِلُ : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعَوْا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَسْعَهُمْ
مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

وَكَانَ يَسْتَمِعُ فِي تَوَاضُعٍ ظَاهِرٍ ، وَحِلْمٍ جَمٍّ ، لَا يَتَعَجَّلُ مُحَدِّثَهُ ،
وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ .

دَخَلَ نَفَرٌ عَلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، فَقَالُوا لَهُ : حَدِّثْنَا أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : مَاذَا أُحَدِّثُكُمْ ؟ كُنْتُ جَارَهُ فَكَانَ إِذَا نَزَلَ
عَلَيْهِ الْوَحْيُ بُعِثَ إِلَيَّ فَكُتِبَتْهُ لَهُ ، فَكُنَّا إِذَا ذَكَّرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا
مَعَنَا ، وَإِذَا ذَكَّرْنَا الْآخِرَةَ ذَكَرَهَا مَعَنَا ، وَإِذَا ذَكَّرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ
مَعَنَا ، فَكُلْ هَذَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . كَانَ
يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَرَّعَتْ قَدَمَاهُ .

نبي الإسلام مُحَطَّمُ الأصنامِ

كانت أصنامُ العربِ قبل الإسلامِ مَعْبُودَةً كُلَّ العِبَادَةِ ، مُتَقَدِّسَةً
كُلَّ التَّقْدِيسِ ، مُحْتَرَمَةً كُلَّ الاحْتِرَامِ .

كانوا يَرْكَعُونَ لها وَيَسْجُدُونَ ، وَيُقَدِّمُونَ لها القَرابينَ ،
وَيَذْبَحُونَ لها الذَّبَائِحَ ، وَيَحْرِقُونَ حَوْلَهَا البخورَ ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّهَا تَمْنَحُ
الْأَرْزَاقَ ، وَتَجْلِبُ الْجَاهَ وَالسُّلْطَانَ ، وَتَمْنَعُ الْأَضْرَارَ ، مَتَى رَضِيَتْ
عَنَّهُمْ .

كانت الأصنامُ خَرَسَاءَ لَا تَنْطِقُ ، وَصَمَاءَ لَا تَسْمَعُ ، وَمَعَ ذَلِكَ
كَانَتْ تُوَحَّى إِلَيْهِمْ بِكُلِّ شَرٍّ ، وَكَانَتْ تُفْسِدُ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ
فِي الْحَيَاةِ .

وَكَانَتْ مِنَ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهَا بِسُوءٍ ،
وَكَانُوا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ تَرْوُلَ الْجِبَالِ وَلَا تَرْوُلَ .

وَكَانَ لِلْأَصْنَامِ كَهَنَاتٌ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا وَيَدْعُونَ لها ، وَيَأْمُرُونَ
بِلِسَانِهَا ، وَيَتَحَكَّمُونَ فِي عِبِيدِهَا كَمَا يُرِيدُونَ .

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْمِيَ الْبَشَرَ مِنْ كَيْدِهَا وَأَوْهَامِهَا وَخُرَافَاتِهَا ،

فجاء النبي ﷺ عليه وسلم يُعَلِّي كَلِمَةَ اللَّهِ، وَيُعْمَن حَرْبَهُ عَلَيْهَا،
بِطَرِيقَتَيْنِ: بِالْإِقْنَاعِ وَبِالْقُوَّةِ.

لقد أوضح المُشْرِكِينَ أَنَّ إِلَهَ الْمُتَعَبُّودِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى
وَأَعْظَمَ مَا فِي الْوُجُودِ شَأْنًا، وَالْأَصْنَامُ لَا تَسْمَعُ نِدَاءَ الدَّاعِينَ،
وَلَا تُبْعِرُ عِبَادَةَ الْعَابِدِينَ، وَكَانَتْ لَا تَنْفَعُ مَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ.
وَلَمَّا قَوَّى أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْتَشَرَتْ دَعْوَتُهُ،
حَطَّمُوا مَا بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ.

كَانَ لِقَبِيلَةِ ثَقِيفِ صَنْمٍ يُسَمَّى «الَّلَاتِ» فَلَمَّا جَاءَ وَفَدُّهُمْ إِلَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَدْخُلُوا الْإِسْلَامَ، كَانَ فِيمَا طَلَّبُوهُ مِنْهُ أَنْ يَتْرَكَ
لَهُمْ هَذَا الصَّنَمَ فَلَا يَهْدِمَهُ قَبْلَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَعَادُوا يَسْأَلُونَهُ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ سَنَةً وَاحِدَةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَرْفُضُ طَلِبَهُمْ
فِي كُلِّ مَرَّةٍ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَلَّا يُحَطَّمُوا بِأَيْدِيهِمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَكُمْ ذَلِكَ، وَسَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ بِتَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ.
وَلَمَّا رَجَعَ هَذَا الْوَفْدُ إِلَى أَرْضِهِمْ، أَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مَعَهُمُ «الْمُنِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ» وَأَبَا سُفْيَانَ لِيَهْدِمُوا أَصْنَامَهُمْ.

وعندما وصلوا مدينة « الطائف » تقدّم « المُنِيرة » لهدمها ،
 ﷻ لأبي سُفيان :

أَلَا تَرِيدُ أَنْ أَضْحِكَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ؟

فقال : بَلَى .

بدأ « المُنِيرة » بنُ شُعبة ، يَضْرِبُ صَنَمَ « اللات » ، ثم تَظَاهَرَ
 بأنه وَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ .

فصاح أهلُ « الطائف » وقالوا : « اللاتُ » صَرَعَتِ الْمُنِيرَةَ
 وأقبلوا يقولون :

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهَا تَهْلِكُ مِنْ أَسَاءِ إِلَيْهَا ؟ فراح « المُنِيرة » يَضْحَكُ
 منهم ، ويقول :

لقد تَظَاهَرْتُ بِالْوُقُوعِ عَلَى الْأَرْضِ لِلشُّخْرِيَةِ مِنْهَا ، وَمَا حُطِّمَتْهَا
 أَمَامَكُمْ .

وراح يُحْطِّمُهَا ، وَالْعَجَازُ مِنْ حَوْلِهِ تَبْكِي ، ثم أَخَذَ « المُنِيرة »
 مَالَهَا وَحُلِيِّهَا ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِيَقْسُمَ تِلْكَ
 فَتُرَوِّعَ إِلَى مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وكانت « العزّى » من أعظم الأصنامِ عند قُرَيْشٍ ، وكانوا

— ١٢ —

يُزَوِّرُونَهَا ، وَيَذْبَحُونَ الذَّبَائِحَ ، وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ ،
وَتَقُولُ :

« اللات العزى ومناة » .

وَلَمْ تَزَلِ « الْعُزَّى » صَمًا يُعْبَدُ ، حَتَّى جَاءَ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ
فَحَقَّرَهَا وَسَخَّرَ بِهَا وَنَهَى قَرِيشًا عَنْ عِبَادَتِهَا ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ
الْكَرِيمُ يَقُولُ فِي اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ .

« إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ » .

وَالَيْكُمْ هَذِهِ الْحِكَايَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ لَهَا مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى
قَرِيشٍ :

لَمَّا مَرِضَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ مَرَضَهُ الْأَخِيرَ ، دَخَلَ عَلَيْهِ
« أَبُو لَهَبٍ » يَزُورُهُ وَيَسْأَلُهُ عَنْهُ فَوَجَدَهُ يَبْكِي . . فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ :

مَاذَا يُبْكِيكَ يَا سَعِيدُ ؟ أَمِنْ الْمَوْتِ تَبْكِي وَهوَ أَمْرٌ
لَا بَدَّ مِنْهُ ؟

قَالَ لَا . . . أَخَافُ أَلَّا يُعْبَدَ النَّاسُ « الْعُزَّى » بَعْدِي .

قَالَ أَبُو لَهَبٍ :

اطمئن لن نترك عبادتها بعدك .

فقال سعيد بن العاص :

الآن علمت أن لي خليفة يهتم بأمرها :

وعندما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخل المسجد
والأصنام منصوبة حول الكعبة ، فراح يطعن عيونها ووجوهها
بسيفه ، ويقول :

« جاء الحق وزهق الباطل ^(١) ، إن الباطل كان زهوقا » .

وأمر خالد بن الوليد أن يحطم بعض هذه الأصنام ، فرجع بعد
أن حطم العزى يقول :

لن تعبد « العزى » بعد اليوم .

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرسل أصحابه إلى أصنام
العرب فيحطمونها ويحرقونها ، وكان بعض العرب يكسرونه
ويذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيعلن إسلامه .

وهكذا قضى على الأصنام ، وتخلص العرب من عبائنها ،
وتطهرت الأرض الطيبة من خرافاتها .

وبذلك خَلَّتْ مَعَابِدُهَا مِنَ السُّكَّانِ الَّذِينَ كَانُوا يَرْكَعُونَ لَهَا
وَيَسْجُدُونَ .

وانْقَطَعَتْ أَقْدَامُ الزَّائِرِينَ وَالْحَاجِّاجِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا ،
وَيَقِفُونَ أَمَامَهَا فِي خُشُوعٍ وَذِلَّةٍ ، وَأُطْفِئَتْ مِنْ حَوْلِهَا الشَّمُوعُ ، وَزَالَ
دُخَانُ الْبُخُورِ ، وَلَمْ تَعُدْ ذِبَائِحُ تُذْبَحُ وَدِمَاءُ تُرَاقِ ، وَرِحَالٌ تُشَدُّ
إِلَيْهَا ، فَقَدْ ذَهَبَ سُلْطَانُهَا ، وَضَاعَتْ عِزَّتُهَا ، فَلَا إِجْلَالَ لَهَا وَلَا
احْتِرَامَ ، وَعَرَفَ النَّاسُ أَنَّهَا كَانَتْ وَهْمًا وَخُرَافَةً .

لَقَدْ كَانَتْ مِمَّا يُحَقِّرُ الْإِنْسَانَ ، وَيَجْلِبُ لَهُ الْعَارَ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْبُدُ
أَحْجَارًا لَا تَنْصُرُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ ، وَلَا تَبْصُرُهُ ، وَلَا تَسْمَعُهُ ، وَلَا حَوْلَ لَهَا
وَلَا قُوَّةَ .

وَبِتَعْظِيمِهَا تَحَرَّرَتِ الْعُقُولُ مِنْ سُلْطَانِهَا ، وَاتَّجَهَتِ النُّفُوسُ
إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

نبي الإسلام منقذ الأرقاء

كان الرِّقُّ مُنتَشِراً في جميع أنحاء العالم ، ولم تَسْطِيع مَدَنِيَّةُ
الرَّمَّانِ ، ولا فَلَاسَفَةُ اليُونانِ ، ولا حِكْمَةُ فَارِسَ ، أن تُلغِي هذا
النِّظَامَ الفَاسِدَ الظَّالِمَ .

كان الإنسانُ الرقيقُ ذليلاً ، لا يَأْكُلُ مع سَيِّدِهِ ، ولا يَسْتَطِيعُ
أن يَمْشِيَ بِجَانِبِهِ أو يَجْلِسَ بِجَوَارِهِ .
كان الرقيقُ مُحْتَقِراً ، ولا قِيَمَةَ لَهُ عند سَيِّدِهِ ، إن شَتَمَ حُرّاً قَطَعَ
لِسَانَهُ ، أو أُدْخِلَ فِيهِ خِنْجَرٌ مُحْمًى ، وإن سَرَقَ سَيِّدَهُ أُحْرِقَهُ ،
وكثيراً ما كان يَجْلِدُهُ ، أو يَكْوِيهِ بِالنَّارِ ، أو يُعَلِّقُهُ بِالطَّاحُونَةِ
لِيُذَيِّرَهَا ، لِأَقَلِّ الأَخْطَاءِ والأسبابِ .

وكان الرقيقُ لا يَسْتَطِيعُ أن يَتَزَوَّجَ مِنَ الأَحْرَارِ ، وكانت
الْحُرَّةُ التي تَتَزَوَّجُ عَبْدًا تُسْتَعْبَدُ ، وكذلك الْحُرُّ إذا تَزَوَّجَ عَبْدَةً
يُعَامَلُ وَلَدُهُ مِنْهَا مُعَامَلَةَ الْعَبِيدِ .

وكانت شهادةُ العبيدِ لا تُسْمَعُ ، وكان لا يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي
وَضْعِ قَانُونٍ أو نِظَامٍ ، ولا حَقُّ لَهُ أن يَتَكَلَّمَ فِي أَمْرِ مَوْضُوعِ يَهْمُ
الأَحْرَارِ .

وكان اليونانيون والرومانيون فيما مضى يُعَدُّون الأمم المملوكة
عبيداً ، وكان بعض شعوب القوقاز قديماً يَتَخَطَّفُونَ النساءَ
والأطفالَ ليُبَاعُوا في سوقِ الرقيقِ .

وفيما يلي صورة من مُعاملة العبيد ، وكيف استَظاع المسلمون
إِثْنَاذَهُمْ مِنْهُمْ فِيهِ مِنْ بَلَاءٍ .

كان بلال بن رباح عبداً لأمية بن خلف ، آمن بحمدٍ — صلى
الله عليه وسلم — وجاهر بإسلامه فكان أحد سبعة أظهروا إسلامهم
في فجر الدعوة . . رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر ،
وعمار بن ياسر ، وأمه سمية ، وحُصَيب . وبلال ، والقداد .

وعزَّ على أمية بن خلف أن يُسَلِّمَ عَبْدَهُ ، وأن يَخْرُجَ عَنْ دِينِهِ ،
وتكون له إرادة حرةٌ فيما يَعْتَقِدُ ، فأمره أن يُعْلِنَ كُفْرَهُ بِحَمْدِ ،
ولكنَّ بلالاً كان قد ذاق حلاوة الإيمان ولذة الحرية فيما يَدِينُ به ،
فأصرَّ عَلَى إِسْلَامِهِ ، ووقف يَتَحَدَّى سَيِّدَهُ . .

وأمر أمية بأن يُؤْخَذَ بلالٌ ظَهراً كُلَّ يَوْمٍ ، فيطرحَ عَارِياً
وتوضع على بطنه الصخرة العظيمة ، ثم تهوى عليه السيَّاط ، ومع
ذلك كان يَهْتَفُ : أَحَدُ أَحَدٍ . .

وَيَعْرِثُ بِهِ أُمِيَّةٌ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ فَيَقُولُ لَهُ شَامِتًا مُتَوَعِّدًا :
 — لَا تَزَالُ هَكَذَا يَا عَبْدَ السُّوءِ حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ .
 وَيَعْرِثُ بِهِ « وَرَثَةُ بْنُ نَوْفَلٍ » وَهُوَ فِي هَذَا الْعَذَابِ فَيَقُولُ لِأُمِيَّةَ :
 — أَقْسِمُ يَا أُمِيَّةَ لَوْ أَنَّ عَبْدَكَ بِإِلَاحِذَا مَاتَ ، وَهُوَ يُعَذَّبُ مِنْ
 أَجْلِ مَا يُؤْمِنُ بِهِ ، لِأَجْعَلَنَّ لَهُ قَبْرًا كَقُبُورِ الشَّهْدَاءِ وَالْقِدِّيسِينَ !
 وَهَذِهِ « مُسَمِّيَّةٌ » تَتَعَرَّضُ هِيَ وَزَوْجُهَا يَاسِرٌ وَابْنُهَا عِمَارٌ لِأَشَدِّ
 أَلْوَانِ الْعَذَابِ ، وَيَعْرِثُ بِهِمْ أَبُو جَهْلٍ مَغِيظًا مُحَنِّقًا فَيَطْعُمُنَهَا فِي مَوْضِعِ
 الْعِفَّةِ بِرُحْمَةٍ حَتَّى تَمُوتَ !

وَلِهَذَا وَضَعَ أَثَرِيَاءُ الْمُسْلِمِينَ خُطَّةَ لَا تُقَازِ حَيَاةٍ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْعَبِيدِ ،
 بِشِرَائِهِمْ مِنْ سَادَتِهِمْ بِأَعْلَى الْأَمْنَانِ .

وَكَانَ أَوْلَهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ سَخَاءً أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، فَقَدْ ذَهَبَ إِلَى
 أُمِيَّةَ بْنِ خَلْفٍ يَعْزِضُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ بِإِلَاحِ ، وَكَانَ أُمِيَّةَ قَدْ فَشِلَ فِي
 فِي تَحْمِلِهِ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ .

وَطَلَبَ أُمِيَّةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَمْسَ أَوْقِيَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ ثَمَنًا لِإِلَاحِ ،
 وَلَمْ يُسَاوِمِ أَبُو بَكْرٍ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الثَّمَنَ .
 هَلْ أُمِيَّةَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، لَوْ أَتَيْتَ إِلَّا أَوْقِيَةً لِبِعْنَاكَ !

فأجابه أبو بكر وهو يحل وثاق بلال . لو أَيْدَيْتُمْ إِلَّا مِائَةَ أَوْقِيَّةٍ
لَأَخَذْتُهُ . !

وَأَعْتَقَ أَبُو بَكْرٍ بِلَالَآ وَرَدَّ إِلَيْهِ حُرِّيَّتَهُ ، ثُمَّ اشْتَرَى وَأَعْتَقَ غَيْرَهُ
مِنْ الْعَبِيدِ . .

وكذلك فعل غيرُه مِنْ أَتْرِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ . . إِنْهُمْ لَيَتَسَابِقُونَ فِي
تَحْرِيرِ الرَّقِيقِ ، يَحْرُرُ أَبُو بَكْرٍ سِتًّا مِنَ الْجَوَارِي وَالْعَبِيدِ ، وَيَحْرُرُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ثَلَاثِينَ . . وَهَكَذَا حَتَّى اسْتَرَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَرْقَاءِ
وَالْبَغَايَا حُرِّيَّتَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ فِي ظِلِّ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ .

لَقَدْ أَوْصَى نَبِينُنَا الْكَرِيمُ أَنْ نُحْسِنَ إِلَى الْأَرْقَاءِ^(١) ، فَهُمْ إِخْوَانُ
لَنَا فِي الدِّينِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نُحْسِنَ مُعَامَلَتَهُمْ ، فَتُطْعِمَهُمْ مِمَّا نَأْكُلُ ،
وَنُلْبَسُهُمْ مِمَّا نَلْبَسُ ، وَلَا نُكَلِّفُهُمْ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ .

وَأَبَاحَ الْإِسْلَامُ لِلرَّقِيقِ أَنْ يَشْتَرِيَ نَفْسَهُ مِنْ مَالِكِهِ بِإِلَاحٍ
يَدْفَعُهُ لَهُ .

وَحَكَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَنْ عَذَّبَ تَمْلُوكَهُ^(٢) أَوْ خَصَاهُ
أَنْ يَمْتِقَهُ أَوْ يَمْنَحَهُ حُرِّيَّتَهُ ، وَجَمَلَ عِتْقَهُ كَفَّارَةً لِعَمَلِهِ ، أَوْ يُكْفِّرُ .

(١) الْأَرْقَاءُ = الْعَبِيدُ . (٢) تَمْلُوكُهُ : مَمْلُوكُهُ يَمْلِكُهُ = عَبْدُهُ .

عن هذا الخطأ بأن يجعله حراً .

ومن الوسائل التي اتبعتها الإسلام ونبيه الكريم في عدم نشر الرق أن جعل كفارة كل من قتل خطأ ، أو امتنع عن الصيام عمداً ، أو حنث في يمينه أن يعتق رقبة^(١) - أي يحرر إنساناً بشرائه من ماله ، أو يطلق سراحه إن كان مملوكاً أو عبداً ، وأن الجارية التي تلد لسيدها مولوداً نصير حرة بعد موته ، ولا يجوز لسيدها أن يبيعها في حياته .

جاء رجل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : دلني على عمل يقربني من الجنة ويبعدني من النار ، فقال النبي :
فك رقبة^(٢) .

وقال أيضاً يعلم الناس مخاطبة الرقيق :
« لا يقل أحدكم عبدي .. أمتي ، وليقل فتاتي وفتاتي » .
وجعل الإسلام ونبيه الكريم من أموال الزكاة إعانة للمملوك لدى كاتبه سيده على دفع مالٍ مقابل تحريره من العبودية .

(١) فتق رقبة = تحررها .

(٢) فك رقبة = تحررها .

نبي الاسلام مُحَرَّرُ المرأة

كان تقديرُ الرجلِ للمرأةِ في الجاهليةِ تقديرًا محصوراً في أوضاعٍ خاصةٍ، تتصلُّ كُلُّها بالتقاليدِ والمَاطِفَةِ والنِّعَاتِ القَبَلِيَّةِ ، كانوا ينظرونَ إلى أمهاتهم نظرةَ احترامٍ . كانت المرأةُ كَأَمٍّ مَوْضِعَ إجلالٍ وطاعةٍ من كُلِّ بَيْنِهَا .

ولِكنَّ المُجْتَمَعَ الجاهليُّ كانَ خِلَواً من نظرةٍ تقديرٍ شاملٍ للمرأةِ ، في كُلِّ حَيٍّ ، وفي كُلِّ قَبِيلَةٍ ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اسْتَشْنَيْنَا هَذَا الإِجْاعَ العامَّ الَّذِي يَحُلُّ عَلَى الأُمِّ المُنْجِبَةِ لِلرِّجَالِ ثَوْباً من التَّقديرِ الخاصِّ .

وفي الوقتِ نفسِه كانت بعضُ القبائلِ تنظرُ إلى المرأةِ نظرةَ ضَمَفٍ وَاحْتِقَارٍ ، إلى حَدِّ أَنَّهُمْ مارَسُوا عَادَةَ وَأَدِ البناتِ .

ولم يكنْ وَأَدُ البناتِ عامّاً في قبائلِ العربِ ، بل كان مُنَحْصِراً في بعضِ بني تميمٍ وقبائلٍ قليلةٍ أُخرى ، إذ ظَهرَ فيهم لِسَبَبٍ طَرَأَ عليهم .

كانوا يُؤَدُّونَ الإِثَاوَةَ ^(١) إلى النِّعمانِ مَلِكِ الحِيرةِ فَمَنَعُوها سَنَةً

(١) الإِثَاوَةُ : الجزية

من السنين، فجرد عليهم النعمان كتابته، وساق أنعامهم، وسبى ذرارهم، فمظم ذلك على التميميين، فوفدوا عليه يطلبون أهلهم وأموالهم فأبى النعمان فقالوا «أعطنا النساء» فقال «إننا نخيرهن في الذهاب أو البقاء. وأعلن: أن كل امرأة إن اختارت أباه ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت له، فكل واحدة منهن اختارت أباه إلا ابنة قيس بن عاصم، كانت قد أحببت عمرو بن السمروخ، فاختارت البقاء عنده. فغضب قيس ونذر ألا تولد له ابنة إلا قتلها^(١)، ورثنا اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته، وكان بعض العرب لا يزوج بناته، وأشهرهم ذو الإصبع العدواني، فكانت له أربع بنات، فمعهن الزواج وهن يرذنه. جاء ذلك في حديث طويل ذكره المبرّد^(٢). وبجانب هذه العادة المردولة كانت بعض القبائل تمارس عادة مستهجنة وهي حرمان المرأة الميراث.

وبالجملة فقد بقيت المرأة العربية في الجاهلية بعيدة كل البعد عن مجالس الأدب والأدباء والعلم والأماة وعن مضمار السياسة، والاشتراك في الإدارة والحكم، وعن ميادين القتال والجهاد إلا نادراً. ولما جاء نبي الإسلام بدعوته ورسالته المجيدة تبدل الحال غير

الحال . لقد وجدت المرأة في هذا النبي درعاً حامياً وسنداً قوياً ،
يُدافع عن حقوقها ويحمي حرّياتها ، فإذا هي تشترك في الجيوش
المجاهدة ، وإذا هي تنفّس مجالس الأدب والأدباء ومواكب الفنّ
والفنانين ، وإذا برأيها موضع الإجلال والتقدير عند الولاة
والحكام والخلفاء .

جاء هذا النبي يقول للناس : خياركم خياركم إنسانيتكم
وجاء يقول :

ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانن إلا لئيم .
وجاء يقول :

المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها .
لقد نادى النبي بحق المرأة المتزوجة في ممارسة حقوقها المدنية ،
فلها أن تدير بنفسها شئونها وممتلكاتها مستقلة عن زوجها ،
متى أرادت .

وأجاز لها النبي الاشتغال بالتجارة والصناعة ، وليس من حق
الزوج منعها من ذلك ، خصوصاً إذا كان الغرض مساعده . وقد
كانت تختار من الصناعات النسيج والتطريز ، ومن التجارة السلع
الخاصة بالنساء .

كَانَتْ « أَسْمَاءُ بِنْتُ مَخْرَبَةَ » تَبِيعُ الْمُطَوَّرَ ، وَكَانَ بِالْمَدِينَةِ امْرَأَةٌ
عَظَامَةٌ تُسَمَّى « حَوْلَاءُ بِنْتُ ثُوَيْبٍ » .

وَكَذَلِكَ بَاشَرَتِ السَّيِّدَاتُ الْمُتَقَدِّمَاتُ فِي السَّنِّ التَّجَارَةَ فِي مُخْتَلَفِ
السَّلَمِ ، فَقَدْ تَقَدَّمَتِ « فَيْلَةُ الْأَنْمَاطِ » إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
تَسْتَفْتِيهِ فِي أَنَّهَا تُسَاوِمُ فِي الشِّرَاءِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى الثَّمَنِ الَّذِي حَدَّدَتْهُ
فَتَشْتَرِي ، وَكَذَلِكَ فِي الْبَيْعِ ، فَهَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
مُوجَّهًا إِيَّاهَا إِلَى الشِّرَاءِ بِالثَّمَنِ الَّذِي تُرِيدُ الشِّرَاءَ بِهِ وَالْبَيْعِ بِالثَّمَنِ
الَّذِي تُحَدِّدُهُ دُونَ مُسَاوَمَةٍ .

وَوَفَدَتِ أَسْمَاءُ « بِنْتُ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيَّةُ » عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَتْ :

يَا أَبِى وَأُمِّى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا وَافِدَةٌ النَّسَاءِ إِلَيْكَ . وَاعْلَمْ —
نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ — أَنَّهُ مَا مِنْ امْرَأَةٍ كَانَتْ فِي شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ سَمِعَتْ
بِمَخْرَجِي هَذَا أَوْ لَمْ تَسْمَعْ إِلَّا وَهِيَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِي إِنْ اللَّهُ بِعَثْكَ
إِلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، فَأَمَّا بَكَ وَاتَّبَعْنَاكَ . وَنَحْنُ مُعَشَّرَاتُ النَّسَاءِ مَحْضُورَاتُ ،
مَقْمُورَاتُ قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ ، وَحَامِلَاتُ أَوْلَادِكُمْ ، وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ
فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجَمْعِ وَالْجَمَاعَاتِ وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ وَالْحُجِّ
بَعْدَ الْحُجِّ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَنْ الرِّجَالَ مِنْكُمْ

إِذَا خَرَجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ مُرَاطِبًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَغَزَلْنَا
لَكُمْ أَثْوَابَكُمْ ، وَزَيَّنَّا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ .. أَفَأَنْشَارِكُمْ فِي هَذَا
الْخَيْرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

فَأَلْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَالَ لَهُمْ :
هَلْ سَمِعْتُمْ مَقَالََةَ امْرَأَةٍ أَحْسَنَ سُؤَالًا عَنْ دِينِهَا مِنْ هَذَا ؟
فَقَالُوا :

لا ، يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ سَتَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

انْصُرْفِي يَا أَسْمَاءُ ، وَأَعِدِّي مَن وَدَّاءِكِ مِنَ النِّسَاءِ : أَنَّ حُسَيْنَ
تَبَعِلِ^(١) إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِيهَا ، وَطَلَبَهَا لِمَرْضَاتِهِ ، وَاتَّبَعَ عَمَّا لِمُوَافَقَتِهِ ،
يَعْدِلُ كُلُّ مَا ذُرْتَ .

فَانْصُرَفَتْ أَسْمَاءُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا .

وقد عَزَّ عَلَى نِسَاءِ الْعَرَبِ أَنْ يَمْنَحَ النَّبِيُّ الرِّجَالَ وَحَدَّاهُمْ كُلُّ وَقْتِهِ
فَسَأَلْنَهُ أَنْ يَخْتَصَّهِنَّ بِيَوْمٍ ، فَأَجَابَهُنَّ إِلَى طَلَبِهِنَّ ، وَحَدَّاهُ يَوْمَ
مُحَنٍّ ، يَجْلِسُ إِلَيْهِنَّ ، يَهْدِي الْحَائِرَةَ وَيُخَيِّبُ السَّائِلَةَ .

وَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَبْشَدَرَنَ

(١) تبعل : ملاعبة ومداعبة ورعاية

الْحِجَابَ ، فَلَمَّا دَخَلَ مُحَمَّدٌ ، تَبَسَّمَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ عُمَرُ :
 يَا أَبِى وَأُمِّى أَنْتَ يَا رَسُولَ مَا يُضْحِكُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 رَأَيْتِ النِّسَاءَ فَايْتَدَرْنَ^(١) الْحِجَابَ . فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَيْهِنَّ وَقَالَ :
 يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ ، تَهَبْنِى وَلَا تَهَبْنِ رَسُولَ اللَّهِ ؟
 وَقُلْنَ : أَنْتَ أَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ^(٢) .

وَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُرُوجَ إِلَى غَزْوَةِ خَيْبَرَ ،
 تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ السَّيِّدَةُ « أُمُّ سَيِّدَاتِ الْأَسْمَاءِ » وَقَالَتْ :
 يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْرِجْ مَعَكَ أَدَاوِى الْعَرِيسِ وَالْجَرِيحِ إِنْ
 كَانَتْ بِهِ جِرَاحٌ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 أَخْرِجْنِى عَلَى بَرَكَهَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ لَكَ صَوَاحِبَ قَدْ كَلَّمَنِي وَأَذِنَتْ
 لهنَّ مِنْ قَوْمِيكَ وَمِنْ غَيْرِهِمْ .

* * *

أَمَّا حَيَاتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ وَبَيْنَ نِسَائِهِ ، فَقَدْ كَانَتْ
 الْمَيْلَ الْأَعْلَى فِي الْمَوَدَّةِ وَالْوَدَاعَةِ ، وَتَرَكَ الْكُلْفَةَ ، وَبَدَلَ التَّعَوُّفِ ،
 وَاجْتَنَابِ هُجْرِ الْكَلَامِ وَمُرَّهِ .

وَسُمِّلتْ عَائِشَةُ : مَاذَا كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ ؟

(١) ايتدرن الحجاب : أسرعن إلى الستر (٢) القم-طالانى ج ٥ - ٥

فَقَالَتْ : كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الصَّلَاةِ ، تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ
كَانَ يُعَاوِضُهُنَّ وَيَعْمَلُ مَعَهُنَّ .
وَكَانَ مِنَ التَّبَسُّطِ وَرَفَعَ الْكُلْفَةَ إِلَى حَدٍّ أَنْ يَسْتَبِقَ هُوَ
وَأَمْرَاتُهُ .

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ تَتَوَلَّى الطَّعْنَ وَالْعَجْنَ عَلَى حِينٍ
كَانَ عَيْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْزِعُ الْمَاءَ وَيَحْتَمِلُهُ وَيُهَيِّئُهُ .
وَقَدْ اعْتَرَفَ الْمُسْتَشْرِقُ الْفَرَنْسِيُّ « أَنْدَرِيه سُرْفِيه » بِفَضْلِ هَذَا
الرَّسُولِ فِي كِتَابِهِ « الْإِسْلَامُ وَنَفْسِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ » فَقَالَ :

لَا يَتَحَدَّثُ هَذَا النَّبِيُّ عَنِ الْمَرْأَةِ إِلَّا فِي لُطْفٍ وَأَدَبٍ . . . كَانَ
يَجْتَهِدُ دَائِمًا فِي تَحْسِينِ حَالِهَا وَرَفْعِ مُسْتَوَى حَيَاتِهَا . . . لَقَدْ كَانَ النِّسَاءُ
قَبْلَهُ لَا يَرْتِنُ ، بَلْ كُنَّ مَتَاعًا يُورَثُ لِأَقْرَبِ الرِّجَالِ ، وَكَأَنَّهُنَّ مَالٌ
أَوْ رَقِيقٌ . وَعِنْدَمَا جَاءَ الرَّسُولُ قَلَبَ هَذِهِ الْأَوْضَاعَ ، خَرَّرَ الْمَرْأَةَ
وَأَعْطَاهَا حَقَّ الْإِرْثِ » ، نِمَ خَتَمَ كَلِمَتَهُ قَائِلًا :

« لَقَدْ خَرَّرَ مُحَمَّدٌ الْمَرْأَةَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَمَنْ أَرَادَ التَّحْقِيقَ بِعِنَايَةِ هَذَا
النَّبِيِّ بِالْمَرْأَةِ . فَلْيَقْرَأْ خُطْبَتَهُ فِي مَسْكَةِ الْإِثْمِ أَوْصَى فِيهَا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا
وَلْيَقْرَأْ أَحَادِيثَهُ الْمُتَبَايِنَةَ » .

مَا أَصْدَقَ هَذَا الْقَوْلَ . . . وَمَا أَكْثَرَ دِفَاعَ النَّبِيِّ عَنِ الْمَرْأَةِ وَحُفُوقِهَا .

أَن يَقُلْ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي أَلْقَاهَا فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ ؟ :

« إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا وَإِنْ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ إِلَّا يَقْرُبَ فَرَشَكُمْ غَيْرُكُمْ ، وَلَا يُدْخِلُنَّ أَحَدًا تَكْرَهُوهُ أَنْ يُؤْتِيَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ ، وَلَا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ ، فَإِنْ انْتَهَيْتُمْ وَأَطَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَإِنَّمَا النِّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَعْلَمْنَ لَأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا .

أليس هو القائل - أَيْضًا ؟

« يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ ، وَلْيَكُنْ سَلَامُكَ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ » .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ « إِنِّي لَا تَزِينُ لِأُمِّ أَبِي كَمَا أَحِبُّ أَنْ تَزِينَنِي لِي » .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ فَتَاةً قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 « إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي مِنْ ابْنِ أَخِيهِ يَرْفَعُ بِي خَسِيسَتَهُ وَأَنَا كَارِهَةٌ » ، فَأَرْسَلَ
 النَّبِيُّ إِلَى أَبِيهَا فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا : فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَجَزْتُ
 مَا صَنَعَ أَبِي ، وَلَسَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ النِّسَاءَ أَنَّ لَيْسَ لِلآبَاءِ مِنَ
 الْأَمْرِ شَيْءٌ .

وَمِنْ أَعْجَابِ التَّضَادَّاتِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْمُؤْتَمِرُونَ فِي أَوْرَبَا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ
فِي سَنَةِ ٥٨٦ مِيلَادِيَّةٍ لِنَبِّحَتْ : هَلِ الْمَرْأَةُ إِنْسَانٌ ؟ وَبَعْدَ بَحْثٍ وَمُنَاقَشَةٍ
وَجَدَلٍ ، قَرَّرُوا أَنَّهَا إِنْسَانٌ وَلَكِنْ خُلِقَتْ لِحُدُومَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ ... وَلَمْ
يَسْكُنْ يَسْدُرُ هَذَا الْقَرَارُ الْجَائِزُ فِي أَوْرَبَا حَتَّى تَقْبَلَهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ إِذْ رَفَعَ صَوْتَهُ قَائِلًا :
(إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ) .

بَلْ قَالَ لِلرِّجَالِ :

أَلَسْتُمْ حَرِيصِينَ عَلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ ؟ هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي تَحْرِيصُونَ عَلَيْهَا
هِيَ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ ، وَكُلُّ امْرَأَةٍ أُمٌّ .
وَبِذَلِكَ عَلَّمَ الْعَالَمَ أَجْمَعَ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِنْسَانٌ مُهَذَّبٌ ، لَهُ مِنَ الْحُقُوقِ
مَا لِلرِّجَالِ مِنْ حُقُوقٍ فِي وَقْتِ كَانَتْ أَوْرَبَا تَنْظُرُ إِلَى الْمَرْأَةِ نَظْرَةَ
سُخْرِيَّةٍ وَاحْتِقَارٍ .

وَفِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ عُمِدَ مُؤْتَمَرٌ عَامٌّ فِي رُومَا بَحَثَ فِيهِ
الْمُجْتَمِعُونَ شُؤْنَ الْمَرْأَةِ ، فَقَرَّرَ الْمُؤْتَمَرُ أَنَّهَا كَائِنٌ لَا نَفْسَ لَهُ ...
وَعَلَى هَذَا فَلَيْسَ لَهَا الْحَقُّ فِي أَنْ تَرِثَ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ .

وَوَصَفَهَا هَذَا الْمُؤْتَمَرُ أَيْضًا بِأَنَّهَا رِجْسٌ كَبِيرٌ ، وَفَرَضَ عَلَيْهَا أَلَّا تَأْكُلَ
اللَّحْمَ وَلَا تَضَحَكَ وَلَا تَتَكَلَّمَ ... وَنَادَى بَعْضُهُمْ بِوَضْعِ أَقْفَالٍ عَلَى فَمِهَا .

وفي هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور
وتحتل مكانتها الرفيعة في المجتمع العربي، وتقف بجانب الرجال في
مُعترك القتال .

لقد قالت الربيع بنت مَعُوذ :

« كُنَّا نَغْزُو مع رَسُولِ اللَّهِ وَنَسْقِي الْقَوْمَ وَنَخْدُمُهُمْ ، وَنَزُدُ الْقَتْلَى
وَالْجُرْحَى إِلَى الْمَدِينَةِ » .

وعن أم عطية الأنصارية قالت :

« غَزَوْتُ مع رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعَ غَزَوَاتٍ أَخْلَفْتُهُمْ
فِي رِحَالِهِمْ ، وَأَصْنَعُ لَهُمُ الطَّعَامَ ، وَأُدَاوِي الْجُرْحَى » .
فَمَنْ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ يُكَابِرُ وَلَا يَعْتَرِفُ لِهَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ بِأَنَّهُ
أَوَّلُ مَنْ نَادَى بِتَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ ؟

وَمَنْ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ لَا يَعُدُّ هَذَا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ مُنْقِذَ الْمَرْأَةِ مِنَ
الذُّلِّ وَالطُّغْيَانِ وَالْعُبُودِيَّةِ ؟

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ أَنْ يَصِفَ « أَنْدَرِيه سرفيه » نَبِيَّتَنَا الْكَرِيمَ
بأنه مُحَرِّرُ الْمَرْأَةِ وَمُنْقِذُهَا ؟

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ أَنْ يَصِفَهُ بِأنه نَصِيرُ الْمَرْأَةِ !

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هَذَا كُلُّهُ لِمَسِيو « ريفيل » أَنْ يَقُولَ بِدَوْرِهِ ؟

« إِنَّا لَوِ رَجَعْنَا إِلَى زَمَنِ هَذَا النَّبِيِّ لَمَّا وَجَدْنَا عَمَلًا أَفَادَ النِّسَاءَ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَهُ هَذَا الرَّسُولُ ، فَالنِّسَاءُ مَدِينَاتُ لِنَبِيِّنَ بِأَمُورٍ كَثِيرَةٍ رَفَعَتْ مَسَكَتَهُنَّ بَيْنَ النَّاسِ » .

وَهَذَا أَيْضًا هُوَ مَا دَفَعَ الْعَالَمَ الْأَلْمَانِي « دَرِسْمَان » أَنْ يُسَجِّلَ قَوْلَهُ :

« لَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ إِلَى تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ السَّيِّبِ فِي نُهوضِ الْعَرَبِ وَقِيَامِ مَدَنِيَّتِهِمْ . . . وَعِنْدَمَا عَادَ أَتْبَاعُهُ وَسَلَبُوا الْمَرْأَةَ حُقُوقَهَا وَحُرِّيَّتَهَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ عَوَامِلِ ضَعْفِهِمْ وَاضْمِحْلالِ قُوَّتِهِمْ .

وَقَدْ كَتَبْتُ جَرِيدَةَ الْمُونِيتُور^(١) الْفَرَنْسِيَّةَ تُصَوِّرُ احْتِرَامَ الْإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ لِلْمَرْأَةِ فَتَقُولُ :

« لَقَدْ أَحْدَثَ الْإِسْلَامُ وَنَبِيُّهُ تَغْيِيرًا شَامِلًا فِي حَيَاةِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ . . . فَمَنْحَهَا حُقُوقًا وَاسِعَةً تَفُوقُ فِي جَوْهَرِهَا الْحُقُوقَ الَّتِي مَنْحُوتُهَا الْمَرْأَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ »^(١) .

(١) هذا الحديث من مائة سنة فقط .

نبي الإسلام المعلم الأول

لم يسبق الإسلام دين شجع العلم ، وأشاد بفضل العلماء كما فعل الدين الإسلامي ، ويكفي دليلاً على ذلك أن أول ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم هو قول الله تعالى :

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ،
أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١) .

وفي بداية الدعوة إلى الإسلام بدأ النبي ﷺ يلتقي سراً بمن آمنوا به في بيت الأرقم بن أبي الأرقم ، يعلمهم ما نزل من كتاب الله العزيز ، فكان المعلم الأول ، وكان بيت الأرقم مدرسة للمؤمنين الأوائل .

وعندما أعلن دعوته للإسلام جهرًا أمام كل الناس ، بدأت تنتقل إلى كل مكان ، فكان يعلمهم في المسجد والحج والطريق وفي كل لقاء ، يشرح آيات ربه ، ويوضح أحكامه وتعاليمه لينير لهم الطريق ، طريق الدنيا والآخرة .

وَتَخْضِي الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامَ ، وَاللَّهُ يُنْزِلُ آيَاتِهِ ، وَيَجْمَعُ النَّبِيَّ
الْمُعَلِّمُ قُوَّةَهُ وَيَتْلُو عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَيَحْفَظُونَهُ
وَيَعْمَلُونَ بِهِ .

وَيُقِيلُ النَّاسُ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْمُعَلِّمِ لِيَتَعَلَّمُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وَهُمْ
مُشْتَاقُونَ إِلَى الْجُلُوسِ أَمَامَهُ وَالنَّحْدِثِ مَعَهُ ، إِذَا كَانَ سَمَحَ الْوَجْهِ ،
فَصِيحَ اللِّسَانِ ، حُلُوَ الْحَدِيثِ ، حَسَنَ الْمُعَامَلَةِ ، عَلَيْهِ الْمَهَابَةُ وَالْوَقَارُ ،
وَهَذَا بِمَا جَعَلَ لَهُ شَخْصِيَّةَ الْمَعْلَمِ النَّاجِحِ الْمَحْبُوبِ الَّذِي يَجْذِبُ إِلَيْهِ
الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ جَمِيعًا .

وَفِي خُطْبَةٍ مِنْ خُطْبِ النَّبِيِّ الْمُعَلِّمِ لَامَ فَبِهَا الْأَشْعَرِيِّينَ « وَهُمْ
مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَجِيرَانِهِمُ الْأَعْرَابُ غَيْرُ فَقَهَاءٍ بِأُمُورِ دِينِهِمْ ،
وَأَمَرَ الْعُلَمَاءَ وَالْفُقَهَاءَ أَنْ يُعَلِّمُوا ، وَأَمَرَ الْأَعْرَابَ أَنْ يَتَعَلَّمُوا
وَيَتَفَقَّهُوا .

وَلَمَّا عِلِمَ « الْأَشْعَرِيُّونَ » بِذَلِكَ قَالُوا :

أَمَّا لَنَا سُنَّةٌ يَارَسُولَ اللَّهِ ، فَأَمَّا لَهُمْ سُنَّةٌ لِيُفَقِّهُوهُمْ وَيَعَلِّمُوهُمْ .
مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ الْمُعَلِّمَ لَمْ يُقَرِّ فَوْماً جُهَلَاءَ بِجَانِبِ
قَوْمٍ مُتَعَلِّمِينَ فَقَهَاءَ ، وَاعْتَبَرَ بَقَاءَ الْجَاهِلِينَ عَلَى جَهْلِهِمْ ، وَامْتِنَاعَ

المتعلمين عن تعليمهم عصياناً لأوامر الله وشريعته ، وأعلن العقوبة على الفريقين حتى يسرعوا إلى التعلم والتعلم ، وأعطاهم مهلة عام للقضاء على آثار الجهل والأمية المنتشرة بين الكثيرين منهم .

وإن كانت هذه الحادثة حدثت بشأن الأشعرين العلماء وجيرانهم الجهلاء ، فإن النبي المعلم أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة ، وبذلك وضع النبي أول نظام لمكافحة الأمية قبل أن تفكر فيه الدول المتقدمة .

وقد دعا الرسول الكريم إلى التعليم فقال : طلب العلم فريضة على كل مسلم .

وقال : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » :

ولأهمية العلم في الحياة دعا النبي المعلم إلى المتزيد من العلم ، وكان دائماً يردد قول الله تعالى :

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ^(١) » .
« وقل رب زدني علماً ^(٢) » .

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ^(١) » .

وكان عليه الصَّلَاة والسلام عَلِيمًا بِالنُّفُوسِ ، خَيْرًا بِأَحْوَالِهَا ،
يَتَدَرَّجُ فِي هِدَايَتِهَا وَتَعْلِيمِهَا وَإِرْشَادِهَا حَتَّى تَقْتَنِعَ بِمَا يَقُولُ :
وكان يُعَلِّمُ النَّاسَ مُسْتَرَشِدًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ
رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

وكانَ فِي تَرْبِيَّتِهِ لِأَوْلَادِهِ ، وَتَعْلِيمِهِ لِأَسْرَتِهِ ، وَتَنْشِئَتِهِ لِلْأُمَّةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ خَيْرٌ مِثَالٍ وَقُدُومٍ ، فَقَدْ كَانَ عَظُوفًا عَلَى الْأَطْفَالِ ،
يُلَاعِبُهُمْ وَيُدَاعِبُهُمْ ، وَيَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ عَلَيْهِمْ وَالتَّلَطُّفِ مَعَهُمْ .
رَوَى أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، فَجَاءَ حَفِيدُهُ الْحُسَيْنُ وَرَكِبَ عَنْقَهُ
وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَطَالَ السُّجُودَ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ أَمْرٌ ،
فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالُوا قَدْ أَطَلَّتِ السُّجُودَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى ظَنَّنَا
أَنْ قَدْ حَدَثَ أَثَرٌ ، فَقَالَ : إِنَّ حَفِيدِي قَدْ أَرْتَحِلُنِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ
أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ . وَرَأَى أَحَدُ الصَّحَابَةِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْبَلُ الْحَسَنَ فَقَالَ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ أَوْلَادٍ
مَا قَبَلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ — فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّ مَنْ
لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ .

نبى الاسلام كطبيب

إذا كان الغذاء هو الأساس في بناء الجسم وتجديد نشاطه وقواه ، فهو — في الوقت نفسه — من أسباب ضعفه ومرضه ، وليس في جسم الإنسان ما هو أضرُّ به من إدخال الطعام على الطعام وازدحام المعدة به . فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب فالشبع الزائد داعية إلى التثمة^(١) ، والتثمة داعية إلى المرض ، والمرض داع إلى الموت .

والإفراط في تناول الطعام يؤدي إلى سمن زائد ، يعوق الحركة ، ويثقل البدن ، فيستولى عليه الكسل ، فلا ينشط إلى عمل ، ولا يُمَرِّع إلى واجب . . هذا عدا ما يتعرض له من أمراض خطيرة .

والمعدة مع كونها أكثر الأعضاء إجهاداً أو قِياماً بالعمل ، فهي ضعيفة الأجزاء ، رقيقة الأنسجة ، فإذا أجهدت أكثر من اللازم ، أو تحلت فوق قدرتها ، أسرع إليها العطب ، وأصابها الضعف والمرض ، ولا خير في حياة يُنغصها المرض ، ويُكدر صفوها الألم .

وكثرة الطعام والشراب تزيد العبء الملق على القلب ، كما تضغط المعدة الممتلئة عليه ، فيزداد إجهاداً وإرهاقاً .

(١) التثمة ما يهيب الإنسان من الإفراط في تناول الطعام

(٢) يكدر : بهكر .

وقد أجمع العلماء الأطباء أن خير وقاية من هذه الأمراض هو الاعتدال في الطعام ، وقالوا :
« المعدة ينت الداء والحنية رأس الدواء » .

وإذا كان العلماء قد توصّلوا إلى هذه النتيجة العلمية في القرن العشرين ، فقد سبقهم نبيا الكريم بقوله :

« لا تُميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثُر عليه الماء » .

وقال أيضا : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » .

لقد أرسل الموقر حاكم مصر إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بهدايا ثلاث : جارية وفرس ، وطيب ، فقبل النبي الهدية الأولى والثانية ، وردّ الثالثة شاكرًا قائلا : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

وكان قوله حكمة خالدة ، ونصيحة طيبة غالية ، تبقى ما بقي الزمن .

والمضار الكثيرة التي يسببها الإفراط في تناول الطعام هي التي جعلت سيدنا عمر بن الخطّاب يقول للناس :

« إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ^(١) فَإِنَّهَا مَكْسَلَةٌ^(٢) لِلصَّلَاةِ ، وَمَقْسَدَةٌ لِلعِزِّ ،
وَمُؤَدِيَةٌ إِلَى السَّقَمِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ فِي قُوتِكُمْ ، فَهُوَ أَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ
وَأَصَحُّ لِلْبَدَنِ ، وَأَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ » .

وَكَانَ الرَّسُولُ يُحِبُّ النِّظَامَ وَحُسْنَ الْمَنْظَرِ وَالرَّائِحَةَ الطَّيِّبَةَ ،
وَكَانَ يَكْرَهُ الْمَنْظَرَ الْقَبِيحَ وَالرَّائِحَةَ الْكَرِيهَةَ وَالنِّظَامَ السَّيِّئَ ،
وَلِهَذَا قَالَ :

« إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كَرِيمٌ
يُحِبُّ الْكَرِيمَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجَوَادَ^(٣) ، فَتَنَظَّفُوا أَنْفُسَكُمْ^(٤) ،
وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ » .

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ مُغْبِرَ الشَّعْرِ ، غَيْرَ مُنْتَظِمِ الرَّأْسِ وَالْأَحْيَةِ ،
فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ بِإِصْلَاحِ شَعْرِهِ فَفَعَلَ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ :
« أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ نَائِرَ الرَّأْسِ^(٥) سَكَانَةً
شَيْطَانٌ ؟ » وَرَأَى الرَّسُولُ رَجُلًا عَلَيْهِ ثِيَابٌ قَذِرَةٌ ، فَقَالَ :
« أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ ثَوْبَهُ ؟ »

* * *

(١) البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام .

(٢) مكسلة : تحبب الكسل وتميل عن القيام بالصلاة ؛

(٣) كريم : (٤) فناء الدار : ما امتد من جوارها .

(٥) نائر الرأس : شعره غير منتظم .

وانتقلت هذه الندوة العالمية بعد ذلك إلى موضوع تزواج الأقارب
ومسأوته : وممرت الساعات وهم يناقشون هذا الموضوع ، وأخيراً
التفت إليهم عالم مصرى وقال :
ما جئتم بجديد أيضاً .
فقالوا له : كيف ؟

ما قلتموه الآن قاله نبي الإسلام من قبلكم ... أليس هو القائل
« اغتربوا ولا تفضوا »^(١) .

أى لا تتزوجوا بين الأقارب ، لئلا تفضوا^(١) أولادكم . فإن
أولاد الغريبة أنجب وأقوى ، وأولاد القرينة أضعف وأضوى .

(١) تفضوا : تضعفوا

نبي الإسلام كـرئيس أمة ودولة

قامت أمة محمد صلى الله عليه وسلم، تحكّم أمورها بكتاب
إلهي، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يخضع
لأحكامه وتعاليمه الحاكم والمحكوم، والسيد والعبد، والدّكر
والأنثى، والكبير والصغير، والعظيم والحقير، قامت دولة محمد
على الحرية والإخاء والمساواة والأخلاق الفاضلة، لا على الحاجات
المادية والمعيشية فحسب.

لهذا السبب جمعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بين أجناس
متفرقة وشعوب مختلفة في اللون واللغة والعادات والتقاليد،
لا يربطها إلا المبادئ الصحيحة والأخلاق الكريمة.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك كله بقوله:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَاثِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.»
وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

«لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» وقال:

«كلُّكم من آدم وآدم من تراب.»

أَلَمْ يُؤَلِّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « بِلَالاً » عَلَى « الْمَدِينَةِ » وَفِيهَا
أَكْثَرُ أَقْوَمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَهُوَ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ اشْتَرَاهُ
أَبُو بَكْرٍ وَأَعْتَقَهُ ؛

أَلَمْ يَجْعَلِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ « مَهْرَانَ الْفَارِسِيِّ » وَالْيَا
عَلَى الْيَمَنِ وَهُوَ فَارِسِيٌّ الْأَصْلُ ، وَلَمَّا مَاتَ وَلَّى ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وَقَدْ
جَرَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعُهُ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ ، وَكَانَ حُكَّامُ الْوَلَايَاتِ
مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ صَلَاحًا وَإِخْلَاصًا وَعَدْلًا .

كَانَ الْعَدْلُ فِي مُحَمَّدٍ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ ، فَالْنَّاسُ أُمَمُهُ
مُتَسَاوُونَ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ .

وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ يَسْتَمِدُّ سِيَاسَتَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :
« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » (١) .

وَحَثَّ النَّبِيُّ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا عَلَى الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ قَائِلًا : « أَشَدُّ
النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَهُ اللَّهُ فِي سُلْطَانِهِ ، فَجَارٌ (٢) فِي
حُكْمِهِ » .

وَفِي قَوْلِهِ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ

(١) سُورَةُ النِّسَاءِ

(٢) جَارٌ : ظَلَمَ

الْأُمَّةِ فَلَمْ يَعْدِلْ فِيهِمْ إِلَّا كَبَّةُ^(١) اللَّهِ فِي النَّارِ .

وكان النبي ﷺ عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده ، مثلاً
عالياً في تحقيق العدل ، كانوا يعدلون بين الناس حتى مع أنفسهم .
حدث أن طاب رجل دينه من الرسول ، فأغلظ له القول ، فهمم عمر
ابن الخطاب أن يضرب الرجل لغلظته مع الرسول ، فقال له صلى الله
عليه وسلم :

يا عمر ، كنت أحوج إلى أن تأمرني بوفاء الدين ، وكان هو
أحوج إلى أن تأمره بالصبر .

وسار الخلفاء الراشدون على النحو الذي سار عليه النبي ﷺ
عليه وسلم ، فكانوا أيضاً مثلاً حسناً للحاكم العادل .

شكا إلى عمر بن الخطاب فتى من مصر ، إذ سبقت فرسه فرس
عمر بن العاص وإلى مصر ، فاعتاظ فصر به بالسوط ، وقال له :
خذها وأنا ابن الأكرمين .

وذهب المصري إلى الخليفة ليشتكو ، فاستدعى عمر بن الخطاب
عمرًا وابنه من مصر ، وأمر المصري أن يضرب ابن عمر كما ضربته

(١) كبة الله في النار : رماه وألقى به فيها .

وَأَنْسَبَ عَمْرًا ، لِأَن ابْنَهُ لَمْ يَفْعَلْ مَا فَعَلَ إِلَّا اعْتِمَادًا عَلَى سَلْطَةِ أَبِيهِ . وَقَالَ ،
كَلِمَتَهُ التَّارِيخِيَّةَ الْعَظِيمَةَ : « مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتَهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ
أَحْرَارًا » ؟ .

وَيُرَوَّى عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّ قُرَيْشًا أَرَادَتْ أَنْ
يَصْفَحَ النَّبِيُّ عَنْ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا :

لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفَعَ لَهَا عِنْدَ النَّبِيِّ فِي ذَلِكَ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، لِأَنَّهُ
أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَذَهَبُوا إِلَيْهِ ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَشْفَعَ لَتِلْكَ الْمَرْأَةِ .
وَمَا إِنَّ بَدَأَ « أُسَامَةُ » الْحَدِيثَ مَعَ النَّبِيِّ حَتَّى تَلَوَّنَ وَجْهُ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ :

أَلْشَّفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ .

فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ : اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي النَّاسِ فَبَعْدَ أَنْ أَتَى
عَلَى اللَّهِ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ
الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنِّي

— وَاللّٰى نَفْسِىْ بِيَدِهِ — لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ^(١) .

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِثَالِ الْحَاكِمِ الَّذِى يُتَابِعُ أَحْوَالَ أُمَّتِهِ ، فَكَانَ يَرَأِىُّ رِقَابَ وُلاَتِهِ ، وَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَا مِنْ وَالٍ يَلِى شَيْئًا مِنْ أُمُورِ النَّاسِ إِلَّا أَتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَمْلُوءَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ ، لَا يَفْكَهَا إِلَّا عَذْلُهُ » .

وَقَدْ مَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحُكَّامَ أَنْ يَجْمَعُوا مِنْ سُلْطَانِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ أَدَاةَ لُجْعِ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَعْتَدَ أَحَدَ الْوُلاَةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سَلِيمٍ ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَاسَبَهُ ، قَالَ : هَذَا الَّذِى لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَمَا لَجَلَسْتُ فِي بَيْتِ أَيْيِكَ أَوْ بَيْتِ أُمِّكَ ، حَتَّى تَأْتِيَنَّكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ؟ ثُمَّ قَامَ فَنَظَّطَبَ النَّاسَ ، وَنَهَى عَنْ مِثْلِ هَذَا وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ .

وَقَدْ نَادَى الْإِسْلَامُ بِالشُّورَى وَاتَّخَذَهَا أَمَاسًا لِلْحُكْمِ ، إِذْ قَالَ

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ » قَالَ :

« لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرُ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

وَعَلَى هَذَا النَحْوِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِالشُّورَى مَضَى الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ،
لَقَدْ اسْتَشَارَ أَبُو بَكْرٍ أَصْحَابَهُ فِيمَنْ يَلِي الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَانَ يَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ فِي اخْتِيَارِ الْوَلَاةِ وَالْقَوَادِ ، وَتَسْيِيرِ الْجُيُوشِ ، وَتَوْزِيعِ الْغَنَائِمِ .

وكَذَلِكَ فَعَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَلَمْ يَسْتَقِلَّ دُونَ أَصْحَابِهِ بِرَأْيٍ
فِي أُمُورِ الْخِلَافَةِ ، فَاسْتَشَارَهُمْ عِنْدَمَا طَلَبَ مِنْهُ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ الْإِذْنَ
بِفَتْحِ مِصْرَ ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيمَنْ يَقُودُ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَرْبِ فَارَسَ ،
وَأَشَارُوا بِاخْتِيَارِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ فَاخْتَارَهُ ، كَمَا جَعَلَ الشُّورَى
فِي تَقْرِيرِ مَنْ الْأَصْحَابَةُ لِيُخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَكُونُ خَلِيفَةً بَعْدَهُ .

وَالْعَمَلُ بِالشُّورَى يَحْفَظُ حَقُوقَ الشَّعْبِ ، وَيَضْمَنُ اسْتِقَامَةَ
حُكَايَمِهِ ، وَحُسْنَ سَيْرِ الْأُمُورِ .

وَالشُّورَى فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْمُسَاوَاةِ وَحُرِّيَّةِ

الرَّأْيِ .

وفَرَضَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم على العالمِ أن يُعَلِّمَ الجاهِلَ ،
وعلى الجاهِلِ أن يَتَعَلَّمَ من العالمِ .

وفَرَضَ على العالمِ ألا يَمْنَعَ النَّاسَ عِلْمَهُ ، وألا يَكْتُمَ ما عَرَفَهُ بَيْنَ
تَعَالِيمِ الدِّينِ وَأَسْرَارِ السَّكُونِ ، حتى لَا يَنْفَرِدَ بِالْعِلْمِ وَحْدَهُ . وقد
جاءَ ذلكَ في قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ كَتَمَ ^(١) عِلْماً أَجَلَّهُهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وقال أيضاً : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَدَلَّمَهُ » .

وكان النبيُّ الكريمُ دائمُ الدَّعوةِ إلى نَشْرِ الْعِلْمِ . وكان خُلَفَاؤُهُ
وَأَتْبَاعُهُ مِنْ بَعْدِهِ يَسِيرُونَ على نَفْسِ الطَّرِيقِ ، فَقَامَتِ الْحَضَارَةُ
الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى أُسَاسَيْنِ قَوِيَّيْنِ هُمَا : الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ .

وَانْتَشَرَ الْعِلْمُ في ظِلِّ الْإِسْلَامِ ، وَأَصْبَحَ هو النورُ الَّذِي يُضِيءُ
العالمَ في القُرُونِ الوُسْطَى الْمُظْلِمَةِ ، وَأَصْبَحَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ أَسَاتِذَةَ الْعَالَمِ
كُلَّهُ في هَذِهِ الْفَتْرَةِ مِنَ الزَّمَانِ .

وَبَفَضْلِ الْعِلْمِ تَقَدَّمَتِ الزَّرَاعَةُ وَالصَّنَاعَةُ أَصْبَحَتِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَقَدُّمِ وَرُقِيِّ وَرَفَاهِيَةِ .

(١) كَتَمَ : اخْفَى

وظَلَّ الْمُسْلِمُونَ يَحْتَرِمُونَ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ ، حَتَّى اعْتَرَفَ بَعْضُ مُؤَرِّخِي
الْعَرَبِ ، أَنَّ مَدِينَةَ قُرْطُبَةَ فِي الْأَنْدَلُسِ — فِي فِتْرَةِ ازْدِهَارِهَا — كَانَ
فِيهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ مِائَتَيْ نَسَمَةٍ ، لَيْسَ فِيهِمْ أَتَى وَاحِدٌ .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى اخْتِرَامِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَاتِّبَاعِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ ،
وَكَيْفَ اسْتَطَاعُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ أَنْ يُقِيمُوا حَضَارَةً مِنْ أَكْبَرِ
الْحَضَارَاتِ وَأَعْظَمِهَا .

لَقَدْ حَظَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَصْنَامَ ، وَحَرَّرَ الْمُقُولَ ،
وَنَشَرَ الْإِيمَانَ ، وَأَنْقَذَ الْأَرْقَاءَ ، وَعَلَّمَ الْجَاهِلَ ، وَحَرَّرَ الْمُرَاةَ ،
وَسَوَّى بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَقَامَ الْعَدْلَ ، وَأَخَذَ بِالشُّورَى .

أَلَا يَحِقُّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنْ نُقَرِّرَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْكَرِيمَ كَانَ
الْمُصْلِحَ الْأَكْبَرَ ، وَالْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ ، وَالْقَائِدَ الْأَعْظَمَ ، وَالْحَاكِمَ الْأَعْدَلَ ؟
وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَفَعَ « بَرْنَارْد شَوْ » الْمَفَكَّرَ وَالكَاتِبَ الْإِنْجِلِيزِيَّ
الْكَبِيرَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الْمَشْهُورَةَ :

« إِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ رَجُلًا كَمُحَمَّدٍ لَوْ تَسَلَّمَ زِمَامَ حُكْمِ هَذَا الْعَالَمِ
بِأَجْمَعِهِ الْيَوْمَ ، لَتَمَّ النِّجَاحُ فِي حُكْمِهِ . وَلَقَادَهُ إِلَى الْخَيْرِ . وَحَلَّ مُشْكِلَاتِهِ
عَلَى وَجْهِهِ يَضْمَنُ لِلْعَالَمِ السَّلَامَ وَالسَّعَادَةَ » .

للمؤلف

- نبي الاسلام : سيرته - دعوته - كفاحه
- حياة محمد وعظمته
- المعاملات بين الناس في الاسلام
- نبي الاسلام في مرآة الفكر الاوربي
- تطلب من دار الفكر العربي والانجلو المصرية
بالقاهرة